ملاحظات حول النقد الأدبي

الدكتور محمد رجب البيومي "القاهرة"

يطيلون الحديث عن معنى النقد فى اللغة فيلمون بكل ما قالت المعاجم فى مادة نقد ومشتقاتها ثم يحاولون ان يعقدوا صلة ما بين كل معنى وما تعورف عليه الآن من معنى النقد الادبي ، وذلك جهد ان ابان عن حسن التصرف وبراعة الاحتيال فانه يكثر الحديث فى غير طائل ، والاوفق ان نختار من معاني الكلمة اللغوية ما يمت بالصلة القريبة الى المعنى الاصطلاحي بلا تزيد فى التفسير لنصل الى الحقيقة دون تصعيب .

واذا كان من أوضح معاني النقد فى كتب اللغة انه تمييز الجيد من الرديء ، تقول نقدت الدراهم وانتقدتها بمعنى انك ابنت الزائف من الصحيح ، وميزت الجيد من الرديء ، فان هذا المعنى الواضح هو القريب من مدلول النقد فى الاصطلاح الادبي لان الناقد لا يخرج عن كونه صيرفيا ماهرا ، يعرف الزائف من الصحيح ويميز الجيد من الرديء ، غير ان مادته هي الاساليب الادبية بمختلف فنونها واجناسها ، فهو اذن جوهري المعاني والالفاظ ، يزن الخواطر والمشاعر والتعابير بميزانه الادبي ويبعث بفكره وراء كل كلمة وخاطره مبينا مكان ذلك من البناء الفني المتكامل للجنس الادبي فهو بعمله هذا من المدلول اللغوي قريب قريب واذا كان الناقد الادبي يعمد الى تصحيح الخطأ وتقويم المعوج وفى ذلك من توجيه اللوم ضمنيا الى صاحب الاثر المنقود ما قد يقع منه موقع الالم وعدم الارتياح فان من معاني النقد اللغوية ما يمت بصلة قريبة الى ذلك ، اذ أن العرب قد يستعملون النقد بمعنى العيب والانتقاص فقد جاء فى قولهم نقدته الحية بمعنى لدغته ، ونقدت رأسه بأصبعي بمعنى ضربته وفيما يروى من حديث أبي الدرداء ان نقدت الناس نقدوك بمعنى ان عبتهم عابوك ومن هنا رجح بعض الباحثين غلبة معنى النقد على مدلول المؤاخذة والتخطئة مشيرا الى ان اللغة قد وضعت لفظ التقريظ لما يقابل المؤاخذة من المديح والاطراء اخذا من قول العرب قرظت الجلد اذا دبغ بالقرظ فحسن وزين وجمل وقد شاع معنى التقريظ اليوم شيوعا ظاهرا ، اذ نرى نفرا من الناس يحرصون على كتابة مقدمات لمؤلفاتهم تتضمن المديح الخالص دون ان تتعرض — الا فى القليل — لمخالفة صريحة فى الراي والاتجاه ، ونحن لا نرفض التقريظ اذا صدر عن راي وامتقاد ووافق موضعه من البحث الرائع والعمل الممتاز ، فهناك من الآثار الادبية ما هو جدير بالتقريظ الجميل ، ولكن المشاهد المؤلم أن اكثر من يتجهون الى التقريظ لا يضعونه الموضع الصحيح فربما رجح عندهم البهرج وشال الصحيح .

اذن فتمييز الجيد من الرديء ، والعيب المنتقص كلاهما من مدلول المعنى اللغوي لكلمة النقد فاذا اتجهنا الى المعنى الادبي للنقد عند العرب وجدناه يستعمل فى القديم بمعنى التحليل والشرح والتمييز والحكم فالنقد لا يخرج لديهم عن دراسة الآثار الادبية وتفسيرها وتحليلها ثم بيان مداها من الاصابة والخطأ مقدرين درجتها الفنية شارحين اسباب الاستحسان

والاستهجان وذلك ما يراه المحدثون اذ يقولون عن النقد انه التقدير الصحيح لاي اثر فني مع بيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة الى سواه ، واذا كان النقد الادبي اليوم في جوهره هو دراسة الاسلوب فكرة وتصويرا وتعبيرا واحساسا مع الحكم عليه فان ذلك ما يلتقي بمعنى النقد في كتب الادب القديمة من ايسر السبيل .

واذا كانت الكتب المؤلفة في النقد العربي القديم، هي الجامعة لمذاهب العلماء والادباء في الفن ، والحافلة بآراء شيوخ الادب في النثر والشعر ، فاننا لا نصل منها الى تحديد اول من اطلق كلمة النقد على مدلولها الادبي من هؤلاء ، واقدم نص وردت فيه هذه الكلمة يرتفع الى البحتري حين تحدث عن ابي العباس ابن ثعلب فقال عنه : « ما رايته ناقدا للشعر ولا مميزا للالفاظ » ولكن رواية البحتري جاءت على لسان عبد القاهر في«دلائل الاعجاز» فلعله روى المعنى دون اللفظ، واظهر من نص على هذه الكلمة صراحة هو ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي من علماء القرن الرابع (337) هـ حين سمى كتابه نقد الشعر وصرح بانه يبحث في تخليص جيده من رديئه ، وقد سبقه الى هذا المضمار محمد بن سلام الجمحي (232) هـ في كتابه «طبقات الشعراء» والجاحظ (255) هـ في «البيان والتبيين» وابن قتيبة (276) هـ في «كتاب الشعر والشعراء»، الآن هؤلاء الثلاثة لم يشيروا الى كلمة النقد اطلاقا حتى جعلها قدامة اسما لكتابه فتعورفت واشتهرت، وترددت بعدذلك في ماكتبه الآمدي والجرجاني والزمخشري وابو هلال وابن رشيق حتى اصبحت علما على من ادبي طائر الصيت ، ويخيل الى ان خلف الاحمر (180) اول من اشار اليها من قريب دون ان ينص على لفظها الصريح وكانه حوم ولم يقع ، فقد روى صاحب طبقات الشعراء (1) ان قائلا قال له : اذا سمعت انا بالشعر استحسنه فما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك فقال له : « اذا اخذت انت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه رديء هل ينفعك استحسانك له » والصيرفي في اللغة هو الناقد وقد قرنه خلف الاحمر بمن يفحص الشعر ويزنه بميزانه الصحيح ، ثم صار الفاحص ناقدا دون تفريق . هذا الناقد الذي يجلس من الاثر الادبي مجلس القاضي فوق منصة القضاء ، يحلل البواعث ويكتنه السرائر ويتعمق المعاني ما موقفه من النص المنقود ؟ أيقتصر في نقده على ايضاح مشاعره الذاتية ازاء النص فيجيء حكمه النقدي صدى لشعوره النفسي ومعبرا عن مدى استجابته الشخصية للنص المدروس أم يتقيد بقواعد علمية مرسومة تعارف عليها السابقون وجعلوها مناط الاحتذاء والترسم لقد طال النقاش حول الذاتية والموضوعية فانبرى الذاتيون ينادون بان الناقد ليس آلة في يد المقررات السابقة يسير في ضوئها ، ويمشو الى نارها ويحرص على التزامها دون انحراف ، فان له من مشاعره الخاصة وثقافته النيرة ، وبصيرته الناقدة ما يستطيع به ان يضع بعض المقررات الجديدة التي تفتح اتجاهات مغلقة ، وتشير الى طرق حديثة في مجال التعبير والتصوير ، وبذلك يتقدم الادب في شتى مجاليه ويضيف اللاحق الى السابق ما يطرد به النمو الادبي نحو الكمال هذا بعض ما يقوله الذاتيون ، اما انصار النقد الموضوعي ، فيرون ان الاهواء الشخصية تتحكم ، والميول النفسية تسيطر فاذا تجرد الناقد عن كل مصطلح مقرر امكنه تحت هذه الميول المتحكمة ان يمدح المخطيء ويذم المصيب ولن يعدم من اوجه التحلل والافتعال ما يظهر نقده مظهر المحايد المتجرد ، واذا استطاع بعض الحصفاء ان يدركوا مآخذ الضعف في انحرافه فان الكثرة من القراء سينخدعون بطلائه ، ويسيرون في تياره وربما احتذى الناشئة حذوه فاندفعوا الى محاكاة ادب هابط رفعه ناقد مغرض لحاجة في نفسه فامتد ضرره السيء الى نطاق بعيد هذا بعض ما يقوله الموضوعيون ، وتلك قضية تلزمنا ان نقول ان الحدود ليست فاصلة بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، اذ ان النقد الذاتي مهما استجاب لتاثيره النفسي وتجاوبه الشعوري ومهما عبر عن انفعاله الخاص نحو اثر يقرؤه ويتذوقه فانه يصدر في تجاوبه واستجابته عن حصيلة قراءات سابقة تتفق على استحسان الجيد واستهجان الرديء ، وهو بعد لم يستطع ان يشق طريقه في ميدان النقد بحيث يصبح ذا تاثير كبير على قرائه الا بعد رسوخ في النظر المستقيم وادمان على البحث الجيد ، ومواصلة للدراسة المنقبة عن مطاوي المعارف ومجاهل الآراء ، وهو بكل هذه الدراسة الموضوعية لا يستطيع ان يكون ذاتيا يتجرد عن جميع ما قرره السابقون من أحكام ، كما ان الناقد الموضوعي مهما التزم القرارات المعلومة وتقيد بالمعارف المرسومة ونهج منهج المحافظين على قضايا الفكر ومذاهب البحث فانه انسان يحس ويتاثر

1) ص 8 طبقات فحول الشعراء .

ويستجيب ، وله ذاتيته التي تدعوه الى التفاعل مع النص تفاعلا يسير به الى تحبيذه في ضوء ما يعلم من المقررات فعنصر الذاتية قريب منه قرب الموضوعية من صاحبه ؟ فليست هناك حدود فاصلة تجعل الناقد الموضوعي ينعزل انعزالا تاما عن الناقد الذاتي ، غير اننا نلحظ السمة البارزة لدى الناقد فاذا غلبت الذاتية على احكامه عد من انصارها واذا غلبت الموضوعية عليه كان ناقدا موضوعيا ، ومن خير الادب ان يوجد الناقد الذاتي والناقد الموضوعي معا ليبتكر الاول ويجدد ويدعو الى آفاق جديدة تفيض بالضياء فيطرد النمو الادبي وتتسلسل الحلقات الجديدة على تناسل الزمان ، أما الناقد الموضوعي فيقف حائلا دون الشطط الجامح ، وحاجزا دون التهور في الراي والاسراف المغرق ، وسيمر الزمن في دورته لينشأ في الجيل اللاحق من يزن آراء الذاتيين والموضوعيين معا ، فيرمي بالزبد ويبقى الصريح .

واذا كنا نحب الادب ونحرص على الاستمتاع بصوره والافادة من افكاره والالتذاذ بموسيقاه فان حبنا للادب يدفعنا تلقائيا الى حب النقد ، اذ ان النقد يتولى شرح الاثر الادبي وتحليله فيسلط اشعته القوية على زواياه الخافية ، ويهدي القارىء الى مناح دقيقة قد تغيب عن ذهنه فيجيء عمله مكملا لعمل الاديب ، وقد يضيق كثير من المنشئين بهؤلاء النقاد ، ويتبرمون بما يبدون من ملاحظات واذكر اني قرات قصة غريبة تهدف الى السخرية من النقاد وتصفهم بالفشل والجدب وتتحداهم ان يضعوا اثرا من الآثار الفنية التي يعملون فيها معاولهم الهادمة ولعل كاتب القصة ممن تعرضوا الى نقد متتابع ازعجه واقلق راحته ، فاندفع يثأر لنفسه من قوم يحملون معاول الهدم وادوات البناء معا ، لان الناقد حين يهدم اثرا فنيا انما يدل على نواحي ضعفه ومواضع تهافته ليتجنبها من يزاول الانتاج وهو في الوقت نفسه يدل على طريقة الانشاء الجيد هادما بانيا في وقت واحد وكل ناقد يعمد الى الهدم فقط دون ان يشير بالعلاج المسدد لا يؤدي رسالته كما يجب أن تكون ، والقارىء ظافر حين يقرأ النص ثم يطالع نقده لانه حين قرا النص قد خرج عنه لا محالة بفكرة ما دقيقة او فضفاضة ، فوزنه بميزانه الشخصي الذي تخلقه الطبيعة في نفس كل قارىء يقرأ ويحكم فاذا قرأ بعد ذلك نقدا جيدا لهذا الأثر ، فانه يوجهه الى ما فاته لدى قراءته الاولى من ملاحظات وربما دفعه الى نهج يلتزمه عند القراءة فتنمو في نفسه بذرة ناقد حقيقي يشرئب للنمو ، وقد يشق طريقه الى الميدان ، أو يكتفي بما اتيح له من قوة الملاحظة وسعة الافق حين درس وجهة النظر الجديدة فيما طالع ودرس ، واذا كانت فائدة القارىء عظيمة فان فائدة صاحب الأثر الفني اعظم وادسم ، لان كل صاحب عمل نظري أو فني يحب أن يستطلع آراء المتخصصين فيه ، فهو يشعر في أطوائه برغبة ملحة الى الاستماع لكل ما يدور حوله من وجهات النظر المختلفة ، فاذا صادف ناقد مخلصا لهدفه فانه يكمل نقصه بما يبدي من اعتراض او مؤاخذة ، ولن يضيره في شيء أن يحصي الناقد اخطاءه في دقة وتعليل لانه اذا آلمه من هذه الناحية فسيسره حين يتعرض بالتحليل الكاشف الى مواطن الابداع في فنه وموضع النبوغ في نظراته ، وقد يكون سفيره الى القراء، اذ يوثق صلاتهم به حين يفتح عيونهم على منافذ جديدة في انتاجه لم تكن لتتاح للكثرة القارئة دون ناقد نزيه ، وعلى أن من الخطر كل الخطر ان يصبح الاديب تلميذا لناقده يخضع لتوجيهه ويرضى بقبول توصياته ، اذ ان من الناقدين من تشمخ نفوسهم الى الاستعلاء فيدعون انهم اساتذة الادباء مع انهم في حقيقة نفوسهم لا يعيشون على غير تراث هؤلاء التلاميذ المزعومين فلولا ان الشاعر او الكاتب قد ابدع اثره الفني ما وجد الناقد مجالا للحديث ؟ وفي الناس من يشترط في الناقد ان يكون اديبا منشئا زاول الانتاج الفني ليكون ابصر بمضايقه، وأدرى بمنعرجاته وقد يكون ذلك ميسورا لدى بعض الموهوبين من النقاد، الا انه ليس امرا عاما لدى الجميع ، وقد كان الرافعي رحمه الله يشترط في ناقد الشعر ان يكون شاعرا ، وهو اشتراط عسير التحقيق من ناحية وغير ضروري من ناحية اخرى اذ ان اكثر نقدة الشعر المجيدين في القديم والحديث ليسوا بشعراء ولم يمنعهم ذلك عن تاليف الكتب الناجعة والمقالات الحاسمة في فن الشعر ومآخذه على أن الناقد من الاديب قريب غير بعيد اذ ان ميدان الفن الادبي هو الانسان والطبيعة فالاديب اما أن يتعرض للنفس الباطنية بما يموج بها من تيار العواطف والنوازع فيصدر عن الذات الداخلية ناظرا الى العلاقات البارزة في الصلات الاجتماعية والمتناقضات البشرية والموافقات الانسانية ومتخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم الخفية في غبطة وارتياح ، واما أن يتعرض للطبيعة من حوله صامتة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم

الخفية فى غبطة وارتياح ، واما ان يتعرض للطبيعة من حوله صامتة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من هذا المحيط الزاخر مسرحا بديعا لخياله الخالق ، وهو فى نظريته الداخلية والخارجية لا يقدم للناقد شيئا غريبا عنه ، فهو انسان مثله يرى ويحس ويتصور ويحكم ، ولئن فاته ابداع المصور المنشىء فلديه ابداع المحلل الشارح وقد تكون المقالة النقدية بانسجام بنائها وتسلسل افكارها وابماض لفتاتها وسر ايحائها ذات متعة وجدانية لدى المتذوقين .

ولكن اي ناقد الذي يمتعنا بفنه الادبي كما يقنعنا بنظره الفكري هذا؟ اننا نقرأ كل يوم فى الصحف والمجلات — حتى الرصينة منها — فصولا تتسم بسمة النقد الظاهرية ولكنها لا تؤدي وظيفته الحقيقية فكم من ناقد يتعرض الى قصة او ديوان او مؤلف فلا يلج الى خوافيه ولا يفسر مراميه — مخالفا او مؤيدا — بل يكتفي بعرض عام يلم به من يقرأ مقدمة المؤلف فى كتابه ، حتى قيل لكل موظف فى مجلة او صحيفة انه يستطيع ان يكون ناقدا ، وقد يكون عرض ابواب الكتاب والاشارة السريعة الى مضمونه مما يفيد القارىء بعض الافادة ولكن صاحب هذا العرض لا يمت الى النقاد بسبب وثيق مهما اخذ مظهرهم الخارجي فى حديثه ونحن نشعر الآن بانخفاض المستوى الادبي فى التاليف عما كان عليه فى حقبة قريبة ، ومرد ذلك فى بعض اسبابه الى ضحالة النقد الادبي ، وفقد الناقد الموجه ، الذي يملك القدرة على التسديد والتوجيه ، وليست الصفات المفروضة فى هذا الناقد المسدد بالامر المعجز ، فهي مما يدخل فى طوق نفر من الموهوبين لو تركوا الكسل الوادع ونشطوا الى العمل الدءوب .

واول صفات الناقد الهادف قوة البصيرة المستندة الى الذكاء اللامح ، فهو صاحب الراي الممتاز فى صفوة ما تنتجه العقول الممتازة من بيان ولابد ان يجد لديه من النفاذ والعمق ما يسعفه بالتفسير الهادف ، والملاحظة القوية كما يمده برصيد حي من التجربة الفنية والدراية الشخصيةبالبواعث والغايات، ومبلغ ذلك كله من نفسه التي تتوهج بالفكر وتزخر بالعاطفة والاحساس والتصور وتلك ذخائر ثمينة يلمسها صاحب الاستعداد الاصيل فى نفسه ليتصل بها الى ما يريد من التقييم والتقويم .

وهذه البصيرة المستندة الى الذكاء فى حاجة ماسة الى الاطلاع المستمر على احدث ما يجد من النظريات والآراء الدائرة فى محيطه الفني ، لان سعة المعرفة تفتح آماق النظر وتسلح صاحبها بالقوى عدده الماضية ، وكلما زادت هذه المعرفة منحت جناح صاحبها ريشا يحلق فى آفاقه المترامية ، واذا كنا نرى الآن بعض من يدابون من النقاد على الاطلاع ويحرصون على اقتطاف اشهى الثمار من الحقل العلمي ثم لا يبلغون باطلاعهم الواسع ما يريدون من صدق النقد وكمال التوجيه فذلك لان الاطلاع والواسع وان تنوعت روافده لا يفيد الناقد اذا عدم البصيرة القوية المستندة الى الذكاء اللامح ، اذ ان هذه المعارف المختلفة اغذية جيدة تفيد الجسم اكبر فائدة ولكن على شريطة ان توجد الاسنان القاضمة والمعدة الهاضمة بحيث تتحول الى دم حار قوي يمنح الجسم نشاطه ويجدد انسجته وخلاياه بالذين يمعنون فى الاطلاع الدائب دون ان يتسلحوا بالذكاء اللامح والخبرة الحصيفة لا يعطون الصورة الامينة للناقد المنشود .

وتاتي بعد قوة البصيرة وسعة الاطلاع صفة ثالثة للناقد الجيد وهي تجرده الخالص من ميوله الذاتية واهوائه الشخصية بحيث ينسى عصبيته لما يعتنق من مذاهب حين يتجه الى النص بالنقد اذ ان هذه الميول الخاصة تضع على الحقائق ستارا يحجب كثيرا من لالائها الساطع ، ونحن نعلم ان الانصاف الادبي خلق عزيز المنال لا يرقى اليه غير ذوي العزم من اصحاب المبادىء النبيلة ولكنه على صعوبة مناله موجود متحقق لدى قلة تتسم به وتصدر عنه فيما تدلى به من الاحكام ومن غرائب النفس البشرية ان صاحب التعصب الذهني قد لا يلتفت فى بعض احواله الى تعصبه بل يتجه اليه لا شعوريا تحت تاثير عوامل قوية بعيدة الخفاء فى منطقة التاثير الباطني فهو صادق بينه وبين نفسه حين يعلن اليك تجرده النزيه فى نقده اذا اردنا بالصدق موافقة النقد للاتجاه الشعوري فى راي الناقد ولكنه غير صادق حين نحلل اعماقه الدفينة التي قد يجهلها جهلا تاما لندرك ما التعصب على عينيه من غشاء ، وعلى القارىء ان يدرس ناقده دراسة وافية ليعلم مذاهبه التي يتمسك بها فى مختلف انائين الراي من سياسة وادب واجتماع ما دام يصدر عنها لا محالة ، فالتعصب المذهبي كان ولا يزال مما يضع الحوائل الكثيفة دون الصواب الصريح اذ ان صاحب الاتجاه الديني او السياسي او الاجتماعي لا يستطيع التخلص من مبادئه

الفكرية فى سهولة مفرطة ليجنح الى الحكم النزيه على اثر أدبي لا يرتضي منحاه وفى تاريخ النقد العربي امثلة كثيرة لشيوخ يعتنقون مذاهب خاصة فى الحديث والقديم تشل عقولهم عن التفكير الصحيح ، فهناك من يتعصب للجاهلين وحدهم ، ولا يكاد يفضل غيرهم فى مجال الاستشهاد وهناك من يفسح صدره فيضم الاسلاميين والامويين الى دائرة رضاه ويقف موقف السخرية مما احدثه ادباء العباسية من انتاج ، كما وجد أيضا من شيوخ النقد القديم من ينزع عنه رداء التعصب ، وينظر الى النص الادبي نظرة مجردة عن التعصب لاتجاه معين يصدر عنه فيما يقول ولعل ابن قتيبة قد افصح عن نفسه وعن غيره حين قال فى كتابه عن الشعر والشعراء : « ولم اقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل الى الفريقين واعطيت كلا حقه وورمت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل فى زمانه ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شرف خارجية فى اوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل يعدون محدثين ، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك من يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هانىء فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثنينا عليه به ولم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

ولابد ان نشير الى صفة رابعة للناقد الجيد وهي الصفاء النفسي الذي يطبعه بطابع الهدوء الوادع ويمنحه اعتدال المزاج ، واطمئنان الاعصاب فلا يثور لمخالفة او يهتاج لنقيصة بل ينظر الى الاثر نظرة الحكيم العالم بالبواعث المعطوف على الانسانية فى ضعفها وكبوتها ، فهو مع النص المنقود دارس متزن يعرف دوافع القول ، ويلقى صاحبه بابتسامة الود حين يشرح وجهة نظره ويضع نفسه مكانه مصورا ما اشتجر فى صدره من الاحاسيس حين رسم خلجاته فى ما قدم من انتاج ، ولا نريد بذلك ان ينقلب الناقد تقريظا مجاملا ، بل نريد أن يكون هذا الود الانساني مدعاة الى تفهم الاثر على حقيقته من ناحية وعاملا على قبول المنقود له وانتفاعه بما يحمل من تسديد وتوجيه، فما أضر بالنقد فى حديثه وقديمه غير قوم راوا الاستعلاء والسيطرة باب المؤاخذة والنقض فشنوا حربا طاحنة كان الاولى أن تكون مسامرة هادئة حتى لقد وتر عند الناقدين أن الشدة العنيفة هي طريقة التصويب والتقييم ، كما انتقلت العدوى الى جمهرة القراء فأخذوا يتابعون أصحاب القسوة المفرطة معجبين ، وقد تعجب حين ترى بعض المتزعمين فى ميدان النقد قد نالوا بسلاطتهم المغرضة ما لم ينله الشرفاء من امناء الكلمة وأرباب الهدوء المتزن وان كان مع هذه الجمهرة المشغوفة بقسوة النقد ثلة منصفة تنفر من الضجيج المفتعل ، وتسد اذنيها لدى القرقعة الصاخبة ، وهي طائفة المستنيرين من ذوي النظر البعيد ، ومن الحظ الحسن ان يكون هؤلاء على قلتهم أداة الترجيح الحقيقية فى المعركة اذ يقولون فيسمعون .

ونحن فى عصر تقدمت فيه العلوم الانسانية فتشعبت فروعها واتسعت ميادينها وأصبحت تمد المثقف المعاصر بزاد دسم يعينه على النظر الثاقب والفكر الصحيح، واذا كان الناقد ملزما كل الالزام ان يلم الماما حسنا بخير ما ينتجه الفكر الانساني من علم وفلسفة، لتتسع آفاقه الفكرية ، فقد شهدت المعارك الادبية فى هذا العهد نقاشا حادا حول صلة هذه العلوم الانسانية بالنقد المعاصر ، فذهب فريق من الكاتبين الى تقعيد النقد ودعمه على أسس علمية ترتكز على هذه العلوم بمعنى أن تكون من علوم النفس والاجتماع والجمال أسس صالحة للنظر النقدي اذ ان عالم النفس حين يلم بالنفس الانسانية ويعلم نوازعها المتباينة وتياراتها المتصارعة وما تسببه العقد النفسية من صراع ، وما تمليه الغرائز من أهواء وميول فانه يستطيع على ضوء هذه المعرفة النفسية أن يحلل النص الادبي تحليلا يبرز مكامن القوة وأسباب الضعف فى جملته وتفصيله، كما ان عالم الاجتماع حين يرصد موقف الاديب من مجتمعه واثر المجتمع فى تكوين الاديب وتلوين مشاربه، وتنازع اهوائه فانه يلمس اثر ذلك فيما قدم من انتاج أدبي ، وربما التمس له بعض العذر فى ما يخالف وجهة النظر العامة بعض المخالفة ، وكذلك عالم الجمال الذي درس أصوله والم بمقاييسه وعرف مدى ما توصل اليه فى البحث عن حاسة الجمال وميزان الشيء الجميل فانه بمقاييسه الجمالية يستطيع أن يزن الاثر الادبي ميزانا علميا لا تميل به النوازع

الخاصة في شيء ، هذا ما ذهب اليه فريق من الباحثين وتطاحنوا من اجله مع فريق آخر يرى ان الدعوة الى تقعيد النقد الادبي ودعمه على اسس علمية ترتكز على العلوم الانسانية خطر داهم يحيط بالنقد الادبي ، لانه يصرف الناقد عن التذوق الفني الخالص الى اصطلاحات علمية تلتقي على دراسته ظلمة مبهمة ، لا تساعد على ارتقاء ذوق او تفهم احساس اذ يرون ان عمل الناقد الاول هو دراسة النص الادبي وتفسيره في افقه الادبي المتذوق بحيث يقف الناقد ليسجل خواطره الذاتية محللا مفسرا دون ان يتعالم بمصطلحات تقف كالصخور الثقيلة في طريق القارىء دون جدوى . هذا بعض ما تنازع حوله الفريقان باذلين جهودهم الشاقة في التدليل والتعليل ، فاصحاب الراي الاول يرون ان العلوم المختلفة تتشابك وتمتد لتقدم للذهن البشري غذاء يسدد نظره وينير طريقه ، ولابد من الالمام بها لنصل الى الحقائق الادبية دون انحراف ، فان العصر الحاضر هو عصر الدراسات التجريبية في كل مجال ولابد أن تطبق هذه الدراسات على الانسان ليفهم على ضوئها منازع انتاجه وبواعث خواطره ، وذلك مما يدعو الى تثقيف الناقد تثقيفا بصيرا ، لترتفع البحوث الادبية الى المستوى المنهجي ذي القواعد المضبوطة ، والموازين الدقيقة ، أما الذين يخالفون ذلك فهم فيراي دعاة التثقيف العلمي انفعاليون لا يصبرون على بحث بل يسرعون الى الاستجابة الى تاثراتهم السريعة عند القراءة العاجلة مما يدفعهم الى الشطط في الحكم والانحراف عن الجادة ، ولن يسكت اصحاب الراي الثاني عن خصومهم فهبوا يقولون انهم ينسون وظيفة النقد الحقيقية وهي دراسة النصوص الادبية ، وتحديد كل معنى وكل لفظ مع ايضاح صلة الافكار وارتباطها وملاءمة الشكل للمضمون وكل اتحام للمعارف الانسانية على هذه الدراسة مما يبعد بالناقد عن ميدانه ، ولسنا نقول بعدم جدوى هذه المعارف الانسانية للناقد فهي توسع مداركه وتنير غوامضه دون نزاع ، ولكننا نقول ان اقحامها في النقد مما يطمس بريقه ويضعف تاثيره وهم بذلك يتفقون مع اصحاب الراي الاول في جدوى هذه الدراسات كثقافة عامة للناقد ، ويختلفون معهم اختلافا يصل الى حد الضراوة والعنف في محاولة استخدام مصطلحاتهما العلمية واساليبها النظرية في عملية النقد ذاته ، ونحن معهم في أن النقد الادبي يجب الا تتكدر مشاربه بهذه التقسيمات النظرية والمصطلحات العلمية بل يظل في مستواه الفني واضحا مشرقا يخاطب الذوق والعقل والعاطفة دون غشاء ، ولدينا المثال البارز على فساد التفريع العلمي في مجال النقد الادبي بما نعرفه من انحدار علوم البلاغة في عهودها الاخيرة على يد العقليين من امثال السكاكي والقزويني والسعد وغيرهم ممن جانب مذهب عبد القاهر في الاستشفاف الذوقي المستند الى الموهبة البيانية والخبرة الادبية اذ ان هؤلاء العقليين جعلوا من بحوث البلاغة الادبية مجالا للمنطق والفلسفة ثم خلف من بعدهم خلف نظر الى هذه المباحث نظرة المماحكة والتبرير فخنقت البلاغة خنقا فيما كتبوه من متون وحواش وتقريرات؟ فالراي الفصل فيما نشب من عراك حول هذه العلوم الانسانية ان يلم بها الناقد الماما يزيد من ثقافته وعمقه على ان يبتعد عنها كل الابتعاد في مجال التطبيق الادبي اذ يقف امام النص الفني وجها لوجه دون ستار، وقد ذهب معارضو اقحام هذه النظريات العلمية في مجال النقد الادبي الى الاستشهاد باقوال اساطين النقد الأوربي مثل لانسون الفرنسي حين يقول فيما ترجمه عنه الدكتور محمد مندور « ان الاصطلاح العلمي عندما ننقله في الادب لا يلقي غير ضوء كاذب ، بل يحدث أن يلقي ظلمة ، وامعن في الروح العلمية موقف اولئك الادباء الذين لا يدعون بناء اي شيء على انموذج غيره ، بل يقصرون همهم على رؤية الوقائع الداخلة في مجال بحثهم ، والعثور على العبارات التي لا تخلف شيئا خارجا عنها ولا تضيف اليها الا اقل ما يمكن والشيء الذي يجب أن ناخذه من العلم ليس كما قال فردريك وهو هذه الوسيلة او تلك بل روحه » . واذا كان الدكتور محمد مندور في طليعة من نادوا بالابتعاد عن اقحام العلوم الانسانية في مجال النقد الادبي فقد ايد وجهته بما ترجمه عن اساتذة النقد في فرنسا من مقالات وكتب تناقش هذه المسائل ، كما لم ينس اجداده العرب حين بحث عن اقوالهم المتصلة بهذا الموضوع فنقل من ابن قتيبة قوله في مقدمة «ادب الكاتب» (1). ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الاسلام برايه نظر من جهة النظر لاحتباه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب واخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها

1) النقد المنهجي عند العرب لمندور ص 27 — النقد المنهجي ص 115 .

فغضب لذلك وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولامثاله المسلمون وقل فيه المناظرون له . ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله ، الكون والفساد ، وسمع الكيان والاسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والاخبار المؤلفة ، راعه ما سمع وظن تحت هذه الالقاب كل فائدة ولطيفة فاذا طالعها لم يحل منها بطائل انما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ، وراس الخط النقطة ، والنقطة لا تقسم، والكلام اربعة ، أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الامر والاستخبار والرغبة وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر . والآن حد الزمانين مع هذيان كثير ، والخبر ينقسم الى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه ، فاذا اراد المتكلم ان يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وبالا على لفظه وقيدا للسانه وعيا فى المحافل وغفلة عند المتناظرين » ، ولن نعلق على نقل الدكتور مندور عن ابن قتيبة بشيء سوى ان صاحب « ادب الكاتب » قد ذكر ما يدور من اصطلاحات العلوم فى عصره مما تداوله علماء المنطق والفلسفة والكلام من امثال الجوهر والعرض والكيف والكمية ، ولكل عصر مصطلحاته وقواعده ، فما يذكر اليوم من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والجمال شبيه بما دار فى عصر ابن قتيبة من غوامض التعريفات ولم يكتف الدكتور مندور بقول ابن قتيبة بل عززه بما ذكره ابو القاسم الآمدي فى الموازنة بين الطائيين حيث قال بعد نقل متشعب :

« واذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة — طريقة السهولة والوضوح — وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لما يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان وحكمة الهند ، أو ادب الفرس ، ويكون اكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب، وان اتفق فى تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دعوناك حكيما او سميناك فيلسوفا ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك اديبا لان طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فان سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء ، وينبغي ان تعلم ان سوء التاليف ورديء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه الى تامل وهذا مذهب ابي تمام فى معظم شعره ، وحسن التاليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كانه احدث فيه فرابة لم تكن وزيادة لم تعهد وذلك مذهب البحتري » .

وواضح ان الآمدي يتحدث هنا عن الشاعر لا عن الناقد وقد يظن ظان ان الاستشهاد فى غير موضعه ؛ ولكننا نقول ان النقد الادبي فى حقيقته الاصيلة — عمل ادبي كالشعر ، وكاتب النقد كناظم القصيدة يجب ان يقدم نقده واضحا شفافا بعيدا عن غموض العويص من اللغة والدقيق من المصطلحات ؛ واذا كان للشاعر ان يثقف بالدراسات الانسانية كما يثقف الناقد فان مصطلحات هذه الدراسة لا يجوز ان تنتقل الى القصيدة الشعرية كما لا يجوز ان تنتقل الى الكتابة النقدية سواء بسواء .

واذا كنا نعرف ان النقد الادبي يقوم على الذوق المستشف البصير بمراقي النبوغ ومهاوي الضعف فى الاثر الادبي ، فليس لكل قاريء ان يقيم من ذوقه الخاص ناقدا يصدر الاحكام الادبية ويوزعها ذات الشمال وذات اليمين كما يشاء ، ولكن صاحب الاستعداد الفطري بالطبيعة والمكتسب بالقراءة والموازنة وسعة الخبرة هو الذي يستطيع النفاذ الى النص الادبي تحليلا وتفسيرا وحكما ، وهو القادر على ان يندمج فيما يقرأ اندماجا يوحي له بكل ما يمن من تقدير او مؤاخذة ، مستعينا بعاطفته وعقله وحسه على اداء وظيفته النقدية ومستجيبا الى هواتف نفسه فيما توحي به من ارتياح او نفور ، وفق ما ادى اليه تمرسه الطويل ومزاولته المستمرة فى محيط العمل الفني فذوق الناقد لا يقف به عند مجرد الاستحسان او الاستهجان بل يهديه الى حيثيات ما يصدر من حكم يكمن وراءه الذهن الصافي والقريحة الخصبة والحس المتيقظ لادق الخلجات وابعد اللوامح ، ونقد يخالف الناقد الذواقة زميله الذواق فى حكم ، ويكون كلاهما صحيح النظرة سليم الاتجاه لان الحلبة الادبية تتسع لاكثر من اتجاه ، ولان الطبيعة البشرية تفترق فى مدى الاستجابة وقوة الايحاء وفق ما لابس الناقد من خبرات قد تختلف فى بعض تجاريبها عن خبرات زميله، ومن هنا نجد الناقدين الكبيرين يحكمان على القصيدة او المسرحية او الرواية بما قد تفترق به الاتجاهات ، ومن البعيد ان يبلغ الاختلاف بينهما درجة التضاد والتباين وان وقع ذلك فهو من الندرة بحيث لا يمثل قاعدة مطردة اذ ان المسلم به انه توجد مع عوامل الخلاف عوامل اخرى للاتفاق تحول دون التضاد الصريح ، انما يكون هذا الاختلاف بين الناقدين

الكبيرين غالبا فى درجة الحكم ونسبته فهو يترجح بين الحسن والاحسن أو الجيد والاجود او الضعيف والاضعف ، وهذا حين يكون النقد فنيا تاثريا لا مذهبيا عقائديا حيث يلتزم الناقد باتجاه ديني او اجتماعي او سياسي يدعو اليه ، فمن الممكن اذن ان يصل الخلاف بين الناقدين الى درجة التضاد ، ومن حسن الحظ ان النفوس اصبحت تضيق بالنقد المذهبي فى مجال الادب الخالص ، وتراه عامل تعصب لا يهدف الى الحكم المجرد النزيه انما النقد ذوق خالص مثقف يستوحي النص دون تقيد أو تضييق ، وهذا الذوق هبة عليا تمنح لذوي المواهب وتصقل بالقراءة والنظر والتمرس البصير ، ويهمنا أن ننقل عن ناقد عربي كبير رأيه الخاص فى تقدير الذوق الموهوب وارتكاز النقد الادبي عليه ارتكازا يجعل كل تعليم دائب لا يكاد يغني عنه شيئا ذلك هو ضياء الدين بن الاثير حيث يقول فى مقدمة « المثل السائر » « اعلم ايها الناظر فى كتابي ان مداد علم البيان على حكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وان كان فيما يمليه عليك استاذا واذا سئلت مما ينفع به قيل لك هذا ، فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا ، واهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك ، وما مثلي فيما جهدته لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال .

هذه خطرات أمهد بها للحديث عن النقد العربي فى اطواره المتعاقبة لنعطى القارىء أضواء تهديه فى ارتياد طريق ممتدة الشعاب ، وهي بعد خلاصة مركزة لبعض ما يدور حول هذا الفن من آراء تشغل النقد والناقدين .